

ألف ليلة وليلة

- قراءة في هجرات العنوان ودلالاته -

أ. ليلى حوماني

المركز الجامعي معسكر

إن العنوان من أشد عناصر النص إثارة ووسما، لكونه عنصرا بنيويا هاماً يقوم بوظيفة الاسم الشخصي¹. ذلك أن أول ما يواجهنا من النص عنوانه، إنه الاسم الشخصي المميز له، وهو من جهة أخرى بدؤه. به يستعين على النهوض و التكوّن ولم شتات أجزائه، لذا حدّه أنه جبهة النص، به يتعرّف المتلقي على وجوده².

بل يبدو وكأنّ النص يتكوّن ويتشكّل من وحول العنوان، ليتحوّل بدوره إلى نص. باختصار إنّه نصّ "ما قبل النصّ / pré-texte" ³ أو "نص مضغوط / Micro-texte" ⁴ إذا اعتبرنا أنّه "يمكن للجملة أن تشتمل على نص ... فيكون النصّ برمته مكوناً مباشراً من مكونات الجملة"⁵.

والعنوان هنا يشمل كل العناصر النصيّة والعناصر غير النصيّة المتعلقة بالشكل الطباعي، هذه العناصر التي يطلق عليها الناقد "جيرار جينيت" (Gérard Genette) مصطلح "Le paratexte" ويعني به "ما يجعل من النصّ كتاباً و ما يمكن أن يقترحه لقرائه أو لجمهوره عموماً"⁶.

وإذ يؤكد (جيرار جينيت) على العلاقة الدالة التي تربط العنوان بالنص، يرى من الضروري معرفة تبريرات استخدامه⁷.

غير أن العنوان في بعده الطباعي قد لا يهتمنا كدارسي أدب بقدر ما يهتمنا الكشف عن جماليات العنوان وبعده الدلالي و الرمزي و تبريرات استخدامه وجملة التوقعات التي يكون قد أحدثها في متلقيه، إذ أنّ درجة تفاعل القارئ مع النص تبدأ

من عنوان هذا النص أولاً، فللعنوان "القدرة الفائقة على ممارسة الإيهام والتضليل بأساليب شتى، ومن ثمّ صاحب إسهام مؤكّد في تشكيل أفق رؤيا و انتظار للقارئ والقراءة" 8.

فالعنوان يمارس فتونه، يورطنا ويجعلنا نساق وراء متاهات العنونة (Titrologie) ليأتي التساؤل حول دلالة العنوان ، في صدارة الأسئلة.

كلّما هممنا بفتح الكتاب يعود إلينا عنوانه مستفزاً ذاكرتنا المرجعية ، نتأمل، ونقرأ العنوان من جديد (ألف ليلة و ليلة)، وتساءل إذا ما كان مثقلاً بالدلالة .

إنّ تساؤلاً من هذا النمط ينهض على ما قبل قراءة لها شكل التوقع ، إذ نحن لا نقرأ في البداية النص، وإلّاما عنوانه، فالعنوان هو الذي يضيء الطريق الذي ستسلكه القراءة، فهو يعلو النص ويمنحه النور اللازم لتبعه، إنه أشبه ما يكون بالثريا 9 .

"ألف ليلة و ليلة"، عنوان مليء بالوعود، مثقل بالذكريات، قيل "هزار أفسانه" (أي ألف خرافة) و علينا الآن أن نتبع هجرة العنوان و مسار انتقاله من " هزار أفسانه" إلى "ألف ليلة" ليصل إلينا تحت اسم " ألف ليلة و ليلة " .

غير أنّ الآراء في ذلك اختلفت وتشعبت إلى حدّ التضارب و التناقض والإيهام، حيث تذهب نيكيتا إليسيف (Nikita Elisséeff) إلى أنّ " هزار أفسانه" ترجم أولاً إلى "ألف خرافة" ثمّ "ألف ليلة" وبعدها "ألف ليلة وليلة" (Mille et une Nuits)، وإذا ما تساءلنا حول سبب هذا التغير من "خرافة" إلى "ليلة" فإنّ السؤال يبدو صعباً، ولم نتمكن من إيجاد أيّ حلّ 10 .

في حين يقول أحمد حسن الزيات " وقد سمي العرب "هزار أفسانه" "ألف ليلة" و لو أرادوا الترجمة الأمينة لقالوا " ألف خرافة أو أسطورة"، فعدوهم عن العنوان الصحيح يدلّنا على أحد أمرين: إمّا أنّ اللّيلة كانت في اصطلاحهم ترادف الأسطورة

باعتبارها زمنا لها ... وإما أن يكون كذلك عدد الألف في الأصل إنما أريد به الكثير لا التحديد¹¹.

أما ليتمان (Littmann) فيقول " ربما كان العنوان " الحكايات الألف " قد غيّر إلى " ألف ليلة " عندما جمع العرب بين القصة النواة والقصص الأخرى " 12 .
لكن تبقى هذه الافتراضات مجرد تخمين يحتاج إلى تدليل، وإذا ما عجزنا عن معرفة سبب هذا التغير من " خرافة " إلى " ليلة "، فإن السؤال الذي يطرح نفسه: لماذا غيّر العنوان من " ألف ليلة " إلى " ألف ليلة وليلة "؟

كان جلد ميستر (Gildemeister) أول من أشار إلى الاختلاف بين " ألف " و " ألف ليلة وليلة " ولتبرير هذا التغير في العنوان ذهب إلى القول أن العرب ينفرون من الأعداد المدوّرة كالعشرة والمائة والألف 13. ويوافقه في ذلك أوروبير 14 (Horovitz) وأويسترب 15 (Oestrup) و فليشر 16 (Fleischer) مؤكّدين أن هذا التغير في العنوان راجع إلى أن العرب كغيرهم من الشرقيين بصفة عامة يتطيرون من الأعداد الزوجية ويفضلون الأعداد الفردية. ويضيف أو يسترب أن ميل الناس في تلك العصور إلى التسجيع في عناوين الكتب كان من البواعث أيضا على هذه التسمية 17 .

غير أن أحمد حسن الزيات يردّ على هذه الآراء بقوله " وهو زعم غريب ما رأينا في تاريخنا ولا في أدبنا ما يؤيده . ولقد ظلّ الكتاب أكثر من قرنين يسمّى " ألف ليلة "، وكان الجهشيارى يريد أن يسمي كتابه " ألف سمر "، وعندنا ألفية ابن معطي وألفية ابن مالك ... وليس في قولنا (ألف ليلة وليلة) تسجيع ولا مزاججة. والغالب - في رأيي - أن اللّيلة إنما زيدت فوق الألف لإفادة الكمال¹⁸ .

أما ليتمان فيشير إلى أن العدد "مائة" نفسه يدلّ على رقم كبير، وقولنا " قبل مائة عام " يدلّ في نظر المؤرخين المشاركة أنفسهم على معنى يساوي "منذ زمن طويل" على

حين تدلّ "الألف" على ما لا يحصى، وأنّ "الليالي" حملت هذا الرقم (ألف ليلة) فترة طويلة. ويرجع تغيير العنوان من "ألف ليلة" إلى "ألف ليلة وليلة" إلى تأثير الأتراك، فعبارة "بن بر" (Bin Bir) التركية ومعناها "ألف وواحد" عادة ما تستخدم للدلالة على العدد الكبير أو ما لا يحصى، ويشيع استخدامها في التركية المعاصرة مثل ميدان "ألف عمود وعمود" في إستانبول ولكن لا يقوم فيها إلاّ عدة عشرات منها، أو "ألف كنيسة وكنيسة" في الأناضول ولكن لا يوجد هناك منها عدد يمثل هذه الكثرة... وكذلك "ألف طراز وطراز" في الدلالة على كثرة الأشكال. وهو تركيب شائع في التركية ممّا يؤكّد -حسب ليتمان- قوة الفرض الذي يربط عنوان "ألف ليلة وليلة" بالاصطلاح التركي 19 .

ليخلص ليتمان إلى القول "ومن ثمّ فإنّ العنوان "ألف ليلة وليلة" كان مدلوله في أول الأمر لا يتعدّى : "عدد كبير من الليالي" ولكن حدث من بعد أن أخذ بمدلول العنوان الحرفي وأصبح من المحتمّ إضافة عدد كبير من الحكايات إلى الكتاب ليلغ عدد الليالي "ألف ليلة وليلة" 20 .

غير أن "نيكيتا إليسيف" تذهب إلى القول أنّه عرف في القرن الثالث عشر الميلادي مؤلفان عربيان يحملان عنوان "ألف عبد وعبد" و"ألف جارية وجارية" -وهذا يعني - أنّه حتى خارج التعبير التركي "بن بر - Bin Bir- فإنّ هذا الحساب كان مألوفاً في هذه الفترة، ومن ثمّ يمكن أن تكون هذه التسمية (ألف ليلة وليلة) مردّها إلى التأثير باسمي هذين الكتّابين 21 .

لتخلص إلى القول "لا نعرف بالضبط متى أخذ هذا المؤلف عنوانه الحالي (ألف ليلة وليلة)... ولكن مهما يكن العنوان الذي انتهى إليه مؤلفنا ، فإننا نجد أنفسنا أمام عدد يدلّ على ما لا يحصى" 22 .

و لم تقتصر الآراء على الناحية العددية في التسمية، لتعلّلها -كما رأينا- حيناً على أساس المصادر والأصول وحيناً آخر على أساس نفسي، بل تعدتها إلى الناحية الزمنية.

فالمستشرق شوفار (Chovar) يرى أن كتاب "ألف ليلة وليلة" قد سمي بهذا الاسم لأنَّ العادة حرمت عليهم أن يقصوا حكاياتهم الخرافية في النهار، فقد سرى اعتقاد بين أوساط الشعب وخاصة بين القصّاص أن من يخالف هذه القاعدة يصاب بشرّ كبير 32.

لترك هجرة العنوان جانبا بين أصوله الفارسية و هجراته العربية ذلك أننا مهما حاولنا الحفر في تاريخ العنوان وظروف توثيقه وظهوره بهذا الاسم لن نصل إلى رأي جازم ينهي الخلاف، ونحاول أن نقرأ العنوان من داخله.

"ألف ليلة وليلة"، باستعادتنا لهذا التركيب اللغوي المكوّن من مركب عطف (المعطوف عليه وحرف العطف والمعطوف) نكون عرضة في مسار قراءتنا للعنوان لإنزياحات قد تقترب من جوهر النص وقد تبتعد مشكلة فاتحة لوهم نعتقد امتلاك مدركاته لأنَّ العنوان وهو يفصح عن مدلولاته الظاهرة والباطنة يدفع بكل إمكاناته إلى المغامرة (مغامرة القراءة) التي تفصح بدورها عن طابعه التخيلي.

يرسي العنوان بعض المعنى في الوضوح، إذ أنَّ مكوّناته السيمية لا تشير لأيّ التباس ممكن بين "ألف" و"ليلة". فهو يشير في دلالاته الأولية إلى عدد مصرّح به (ألف) و عدد سقط (ألف ليلة وليلة واحدة)، وهما عددان لهما موقع متميّز في الذاكرة العربية.

ليبقى السؤال مطروحا: لماذا "ألف" على وجه التحديد خاصة إذا ما علمنا أن هذا العدد لا علاقة له بعدد الحكايات التي رويت، "فالكتاب اليوم بطبقاته وزياداته واستطراداته لا يتجاوز 264 حكاية قسّمها المؤلّف على ألف ليلة وليلة " 24 ؟ فأيّ سلطة سحرية يمتلكها هذا العدد ؟ وهل يفتح على الأفق العجيب ؟ وما هي مختلف الدلالات التي يفصح عنها العنوان في بعده المسكوت عنه ؟

يرجع جمال العنوان في نظر "بورخيس" إلى كلمة "ألف" التي تعني "لانهائي"، لأنَّ فكرة "اللانهاية" هي أساس كتاب "ألف ليلة وليلة"، "فألف ليلة" تعني ليالي لا

حصر لها، وإضافة " ليلة " هي إضافة لليالي اللانهائية التي توحى بها كلمة " ألف " 25. كما أن هذا العدد " ألف " يحوي معنى فردوسي هو السعادة الأبدية 26. هذا ما يجعل " ألف ليلة و ليلة " تنفتح على العجيب بدءاً من العنوان، ذلك أن العجيب هو أيضاً عالم لانهائي، عالم لا محدود يقع خارج الواقع لينفتح على اللامرتقب و المحتمل، و كلّ ما نتخيله لكن يتجاوز قوانا الخلافة.

وعالم العجيب - كما سبق أن رأينا - وإن كان فيه صراع بين قوى الخير وقوى الشر، فإن نهاية أحداثه تكون في الغالب سعيدة. وهكذا فإن العنوان يشتر بالسعادة الأبدية التي ستهي بها " الليالي ". وهذه الدلالات قد حواها العدد " ألف " مما يجعلنا نميل إلى أن " ألف " ليست رقماً مقصوداً لذاته، وليست رقماً قصد به مجرد الكثرة أو عدد كبير من الحكايات غير معين. إنما التسمية العددية هنا رمز، إنه الرقم الضامن لخلود الحلم الرائع.

لعل ذلك يعود إلى رؤية سعت إلى رفع التقابل بين الوحدة والكثرة " برّد الكثير المتخارج إلى المبدأ الواحد، وذلك باعتبار الواحد، العلة التي يظهر الكمّ بموجبها ويتكثر " 27. وعليه، فإن إضافة ليلة إلى الألف ليلة يمكن أن يكون من باب ردّ الكثير " ألف ليلة " إلى المبدأ الواحد " ألف ليلة و ليلة واحدة " باعتبار الواحد علة ظهور الكمّ، ممّا يوحي بالشكل الدائري الذي يتخذه العنوان " و الدائرة ترمز إلى الشمس، إلى أفق السماء، إلى الوحدة، إلى البداية و النهاية " 28.

ردّ الكثير إلى المبدأ الواحد

و ليلة واحدة

ألف ليلة

باعتبار الواحد علة ظهور الكمّ

وعبر شكله الدائري يحاول العنوان أن يوحي بالأفق الذي ستشتغل عليه الحكايات. إنها تريد أن تخرج من واقع العتمة (ليلة) لتصل إلى الليلة البيضاء/ الشمس،

وهو يختصر بذلك البداية والنهاية. ثم لا ننسى أن الدائرة أصلها هندي²⁹، و"رفع التقابل بين الوحدة والكثرة مما أوحى به العرفانية الصوفية"³⁰، فليس من العجيب أن تتلاحم حضارات وتتلاقح الرؤى عند أول عتبة يخطوها القارئ نحو النص.

لتتحول جملة العنوان من معلم كمّي إلى معلم زمني (ليلة) لانطلاق الشخصية الرئيسية في صوغ وجودها الحكائي عبر سلسلة من الليالي التي كانت بدايتها الليلة الأولى قبل الألف ليلة وليلة، وإذ هي "ليلة" فهي تعدّ المؤشر الزمني للشروع في الوجود الفعلي للحكي، غير أن ليلة الانطلاق هذه ممزوجة بالضياح والخوف وافتقاد التوازن ولكنها ليلة تعدّ بالكثير وأولّه الخلاص على جهات عدّة لأنها ليلة شهرزادية غير كلّ الليالي الشهرية التي سبقت هذه الليلة. ولعلّ الرقم "ألف" و"ليلة" يشير إلى عدد يتناول النساء اللواتي صرعهن شهريار - لا ننسى أن شهريار بعد أن اكتشف خيانة زوجته صار كلّما يأخذ بتنا بكارا يزيل بكارتها ويقتلها من ليلتها واستمرّ على هذا الحال ثلاث سنوات - وأنّ الليلة الواحدة الأخيرة هي التي تميّز شهرزاد عن باقي النساء، وأنّ تلك الليلة وحدها بعد الألف كانت مفتاح الفجر والخلاص³¹. فكان لابدّ حوالي ثلاث سنوات من الحكي كي تشيه شهرزاد عن مشروع القتل وتعيد له توازنه، وتلك الليلة وحدها بعد الألف كانت الخلاص النهائي والكلي. ولم تجسّد هذه الليلة الخلاص وحسب بل الاعتراف أيضاً، اعترافه بأخطائه واعترافه بعفّة وطهارة ونقاء شهرزاد كشكل من أشكال ردّ الاعتبار للمرأة التي كانت في عرفه رمزا للخيانة والدونية.

لهذا هي ليلة مميزة وتميّزها يظهر في بروزها في العنوان لتعلن اختلافها عن الليالي الألف السابقة. فإن كانت تلك الليالي تشوبها العتمة لأنّ شهرزاد كانت تعيش تحت التهديد بالموت في أي لحظة، فإنّ هذه الليلة "كانت ليلة لا تعدّ من الأعمار ولونها أبيض من وجه النهار"³².

ولربما هذا هو العجيب في بنية هذا العنوان. أنه استطاع إلى حد بعيد أن يسبق الحكاية ويشير إليها ويعين مضمونها بل ويختصر مسارها، على حد تعبير جيرار جينت 33 .
وبعد، هل استطعنا استنفاد كل الدلالات التي يتيحها العنوان ويفتحها أمام القراءة ؟
العنوان فاتحة الكشف نحو قراءة النص كله، لكن قراءتنا تبقى فاتحة لوهم اعتقدنا امتلاك مدركاته، وهي فاتحة أيضا لهدم هذا الوهم والتحرر منه للوقوع في سلطة وهم آخر يورطنا من جديد في اكتشاف المعنى وراء ألفاظ الاسم الشخصي للنص .
الواقع أن مغامرات العنوان لن تتوقف عند هذا الحد ، وانفتاح العنوان على اللانهائي والمسكوت عنه يشكل عنصرا سحريا يضاف ليعزّر عامل المدهش و العجيب في النص .

الهوامش:

- 1 - صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص.ص:236، نقلا عن: علام حسين ، العجائبي في رواية ليلة القدر للطاهر بن جلون، ص: 71.
- 2 - فريد الزاهي، الحكاية و التخيل، ص: 12.
- 3 - المرجع نفسه ، ص: 11، 79.
- 4 - عمارة كحلي، كتابة مالك حداد من منظور جمالية التلقي، رسالة ماجستير، معهد اللغة العربية وآدابها، جامعة وهران، 1999-2000، ص: 187.
- 5 - الزناد الأزهر، نسج النص: بحث في ما يكون به للفظ نصا، ص: 19، نقلا عن: عمارة كحلي. المرجع نفسه ، ص: 187.
- 6 G.Genette - Ed. Seuil, Paris, 1987, p:7.
- 7 G.Genette - Ed. Seuil, Paris, 1972, p:76, Figures III.
- 8 - ابن عبد الله (الأخضر) ، في البدء ... كان العنوان و كان ... فهل في الغد سيكون ؟. مداخلة مخطوطة أقيمت في مؤتمر النقد الأدبي السادس -جامعة اليرموك الأردن، ص: 13، نقلا عن: عمارة كحلي، كتابة مالك حداد من منظور جمالية التلقي، ص: 187.
- 9-جاء دريدا، التشيت، نقلا عن: عبد الفتاح كيليطو، الغائب، دار توبقال، الدار البيضاء، المغرب، ط1987، ص: 28.
- 10 Institut Français de , Thèmes et Motifs des Mille et une Nuits.- Nikita Elisséeff 10 26, p:25, 1949, Beyrouth, Damas
- 11 - أحمد الشتوي، إبراهيم خورشيد، عبد الحميد يونس، دائرة المعارف الإسلامية، المجلد الثاني، ص: 549-548.

- 21 - ليمان، ألف ليلة وليلة ، دراسة وتحليل، لجنة ترجمة دائرة المعارف الإسلامية، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، ط1، 1982، ص: 134.
- 1 Nikita Elisséeff 3 - Thèmes et Motifs des Mille et une Nuits، p: 26.
- 1 Ibid 4 - p: 26.
- 51 - دائرة المعارف الإسلامية، المجلد الثاني، ص: 525، 526.
- 61 - سهر القلماوي، ألف ليلة وليلة، دار المعارف، القاهرة، مصر، 1966، ص: 30.
- 71 - دائرة المعارف الإسلامية، المجلد الثاني، ص: 526.
- 81 - دائرة المعارف الإسلامية، المجلد الثاني، ص: 549.
- 91 - ليمان، ألف ليلة وليلة ، دراسة وتحليل ، ص: 134+135، و أحمد درويش ، ألف ليلة وليلة، مجلة الجيل، مؤسسة الجيل للصحافة، نيقوسيا، قبرص، المجلد4، العدد10، أكتوبر 1983، ص: 59.
- 02 - ليمان، المرجع نفسه، ص: 136+135.
- 12 Nikita Elisséeff -، Ibid، p:27.
- 22 Ibid -، p: 27.
- 32 - فاروق سعد، من وحي ألف ليلة وليلة ، عرض :طلال سالم الحديثي ، مجلة التراث الشعبي، دار الجاحظ، بغداد، العراق، العدد6، السنة 10، 1979، ص: 223.
- 42 - دائرة المعارف الإسلامية، المجلد الثاني، ص: 549.
- 52 - إينثال يونس، أثر التراث الشرقي و ألف ليلة و ليلة في رؤية العالم عند بورخيس، مجلة فصول، المجلد3، العدد2، الجزء الثالث، صيف 1994، ص: 366..
- 62 Jean Chevalier -، Dictionnaire des symboles، Alain Gheerbrant، Ed.Robbert، 1982، Paris، Laffont، p:634.
- 72 - عاطف جودة نصر، الرمز الشعري عند الصوفية، دار الأندلس، دار الكندي، بيروت، ط1، 1978، ص: 400.
- 82 - جمال الغيطاني، زخرفة ألف ليلة وليلة، اليوم السابع، مؤسسة الأندلس الجديدة، باريس ، يناير 1989، ص: 46.
- 92 - المرجع نفسه، ص: 46.
- 03 - عاطف جودة نصر، المرجع نفسه، ص: 400.
- 13 - علي شلق، ألف ليلة و ليلة، مجلة المورد ووزارة الثقافة، و الإعلام، دار الجاحظ، العراق، المجلد 8، العدد4، 1979، ص: 628.
- 23 - ألف ليلة و ليلة، الجزء الرابع، الليلة الأخيرة، ص: 447.
- 33 G.Genette -، Figures III، p:74.